الدين بين العقل والتقليد

<"xml encoding="UTF-8?>

وإذا كان غالبية الناس يتوارثون أديانهم ومعتقداتهم عن آبائهم وأسلافهم فإن هناك من يتنبه فكره أو يتحرك عقله للتأمل والبحث ليختار دينه وعقيدته عن وعي وإدراك.

فسلمان الفارسي الذي ولد ونشأ في قرية «جي» من أصفهان إيران في عائلة وبيئة مجوسية ربته على عبادة النار لكنه حينما تفتح وعيه وتعرف على المسيحية اعتنقها لأنه وجدها أقرب إلى الصواب من المجوسية، وبعد فترة اتضحت له نقاط الضعف والثغرات في الديانة الجديدة التي اعتنقها، فصار يتنقل من بلد إلى بلد معرضا نفسه للمغامرات والأخطار حتى نهبت منه جماعة أمواله واسترقته أي اعتبرته عبدا تمتلكه وباعته على يهودي مزارع من يثرب، كل ذلك تقبله بسعة صدر في سبيل البحث عن الحق والحقيقة، حتى أدرك امنيته وتشرف بخدمة الرسول محمد وأسلم على يديه .

إن أفرادا مثل سلمان الفارسي ممن يندفعون ذاتيا للبحث عن الدين الحق هم قليلون ونادرون في تاريخ البشرية، نعم قد يسبب ظهور دعوة ديانة جديدة هزة في المجتمع تدفع البعض وخاصة من فئة الأحداث والشباب إلى إعادة النَّظر في ديانتهم الموروثة والتمرد عليها باعتناق الدين الجديد.

والطبقة الشابة في كل مجتمع تمثل أرضا خصبة لتقبل الأفكار الجديدة عادة، لتطلعهم للتغيير واستعدادهم للمغامرة، ولضعف تشبعهم بالفكر السائد.

إن تأثر الأبناء وتقبلهم لأفكار وعادات أهاليهم في مرحلة الصغر أمر طبيعي، ولكن بعد ان يتجاوز الإنسان مرحلة الطفولة والصغر ويمتلك رشده ونضجه العقلي فإن عليه أن يجتهد في التفكير والبحث ويناقش الآراء والعقائد السائدة، ليتبين الصواب من الخطأ ولن يكون معذورا أمام الله وأمام عقله ووجدانه بالاسترسال في تقليد أبويه.

والإسلام يؤكد على ضرورة استخدام العقل والفكر في قضايا العقيدة والدين ويذم التقليد الأعمى والاتباع الساذج، ومنطق القرآن الحكيم في البرهنة والاستدلال قائم على إثارة العقل والاحتكام إليه.

قداسة الدين

من البديهي أن كل جماعة تؤمن بدين فإنها ترى فيه الصحة والصواب، وإلا فلن تعتنق مبدأ تعتقد زيفه وفساده اللهم إلا أن يكون ذلك لمجرد العصبية والتظاهر.
ويتبوأ الدين في نفوس معتنقيه مكانة رفيعة من القداسة والاحترام، بحيث يندفع المتدينون للدفاع عن عقيدتهم ويقاومون كل من يمس قداستها، ويضحون بأنفسهم لحماية مبادئهم وأديانهم. وحتى عبّاد الأوثان والأصنام يثأرون ممن يوجه إساءة لأصنامهم ويخوضون المعارك والحروب للدفاع عن عبادتهم الزائفة.. فنبي الله إبراهيم حكم عليه قومه الوثنيون بالموت حرقا فألقوه في النار لأنه كان يسخر من عبادتهم وأصنامهم ويعلن بطلانها وفسادها يقـول تعالى: ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ 1.
وطريف جدا أن ننقل هنا عن «المهاتما غاندي» تقديسه واحترامه لعبادة البقرة في الهند وهو شخصية سياسية قيادية مرموقة تحررت الهند على يديه يقول تحت عنوان « امي البقرة » ما يلي:
«إن حماية البقرة التي فرضتها الهندوسية هي هدية الهند إلى العالم، وهي إحساس برباط الاخوة بين الإنسان وبين الحيوان، والفكر الهندي يعتقد أن البقرة أم للإنسان فهي خير رفيق للمواطن الهندي وهي خير حماية للهند..
عندما أرى بقرة لا اعدّني أرى حيوانا، لأني أعبد البقرة وسأدافع عن عبادتها أمام العالم أجمع..
وأُمي البقرة تفضل أُمي الحقيقية من عدة وجوه، فالأم الحقيقية ترضعنا مدة عام أو عامين وتتطلب منا خدمات طول العمر نظير هذا، ولكن أمنا البقرة تمنحنا اللبن دائما، ولا تتطلب منا شيئا مقابل ذلك سوى الطعام العادي، وعندما تمرض الأم الحقيقية تكلفنا نفقات باهظة، ولكن أُمنا البقرة فلا نخسر لها شيئا ذا بال، وعندما تموت الأم الحقيقية تتكلف جنازتها مبالغ طائلة، وعندما تموت أمنا البقرة تعود علينا بالنفع كما كانت تفعل وهي حية، لأننا ننتفع بكل جزء من جسمها حتى العظم والجلد والقرن.
أنا لا أقول هذا لأقلل من قيمة الأم، ولكن لأبين السبب الذي دعاني لعبادة البقرة إن ملايين الهنود يتجهون للبقرة بالعبادة والإجلال وأنا أعد نفسي واحدا من هؤلاء الملايين»
إن عددا من المعارك والحروب نشأت في التاريخ القديم والحديث من منطلق حماية الدين والدفاع عن العقيدة، وحتى في أوروبا المعاصرة والتي تسودها المادية فإن فيلما قد عرض خلال السنة الماضية فيه إساءة وتجريح لشخصية السيد المسيح عيسى بن مريم «عليه السلام» بعنوان «الاغواء الأخير للسيد المسيح » فحصلت على أثره ضجة ومظاهرات من قبل المسيحيين واحرقوا عدة دور للسينما كانت تعرض ذلك الفيلم.

انتشار الأديان

لأن الدين شأن قلبي روحي لذلك فإن الطريق الطبيعي لقبول أي دين هو الاقتناع والاختيار الحر، فبمقدار ما يمتلك أي دين من حجة وأسلوب مؤثر، وحسب مستوى دعاة ذلك الدين وكفاءتهم، يكون إقبال الناس عليه واعتناقهم به.

وقد اعتمدت الأديان السماوية منطق الحجة والإقناع في طرح مبادئها على الناس، وكانت اخلاق الأنبياء والأوصياء خير وسيلة للاستقطاب والتأثير.

يقول القرآن الحكيم مقررا لهذا المنهج ومؤكدا عليه : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ 2.

كما يستعرض القران الحكيم قصص الأنبياء وطريقة تبليغهم للرسالة وعرضها على أقوامهم بالدليل والبرهان واستقبال حالات التكذيب والرفض بسعة الصدر، وحسن الخلق.

فهذا نبي الله نوح يطوي مئات السنين داعيا قومه إلى رسالة الله متحملا الأذى والإهانة والتكذيب دون أن يتخلى عن أُسلوب الطرح الهادئ ومخاطبة الوجدان والعقل يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ 3.

ونبي الله شعيب حينما هدده قومه بأن يرجموه بالحجارة حتى الموت أجابهم بكل ثقة وهدوء ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ 4وبمراجعة سريعة لقصص الأنبياء في القرآن الكريم تبدو هذه الحقيقة جلية واضحة. 5

---

1. القران الكريم: سورة الأنبياء (21)، الآية: 68 و 69، الصفحة: 327.
2. القران الكريم: سورة النحل (16)، الآية: 125، الصفحة: 281.
3. القران الكريم: سورة هود (11)، الآيات: 25 - 28، الصفحة: 224.
4. القران الكريم: سورة هود (11)، الآية: 88، الصفحة: 231.
5. نشرت هذه المقالة في مجلة صحيفة اليوم 2 / 9 / 2003م.